



فاجأت الضربات الجوية -التي شنتها القوات الأمريكية وحلفاؤها العرب على موقع تنظيم الدولة الإسلامية وفصائل أخرى- معظم المراقبين والمهتمين بالشأن السوري، كونها لم تتأخر كثيراً بعد تصويت الكونغرس الأميركي لصالح خطة الرئيس الأميركي، القاضية بدعم وتسلیح المعارضة السورية.

وتأتي هذه الضربات لتؤكد وجود نوعي في التعاطي الأميركي مع الأزمة السورية، ذلك أن الإدارة الأمريكية اتخذت مواقف لامبالية بما يجري داخل سوريا منذ أكثر من ثلاثة سنوات، رغم مناشدات دولية وعربية، وعارضت تسلیح المعارضة بأسلحة نوعية، بل وحاولت منع الدول الراغبة من فعل ذلك.

غير أن هذا التحول له حياثاته وأسبابه الأمريكية، الخاصة، ويقتصر على الجانب العسكري، ضمن إستراتيجية الحرب على تنظيم "الدولة الإسلامية" (داعش)، وبالتالي يبرز السؤال عن وضع السوريين في هذه الحرب التي تجري على أراضيهم، وهل أخذت في الحسبان المخاطر التي قد تسببها وتزيد من هول الكارثة التي ألمت بهم، نتيجة الحرب الشاملة التي بدأ بشنها النظام السوري على غالبية السوريين، بوصفهم الحاضنة الاجتماعية للثورة السورية.

حياثات التحول:

جاء التحول في الموقف الأميركي بعد سنوات من اللامبالاة والمماطلة والتردد، إلى أن بات الوضع كارثياً وخطيراً، ولعل أسباباً عديدة تقف وراء التحول، لا تختصر على مشاهد قتل الصحفيين الأميركيين من طرف عناصر داعش، ومدى تأثير ذلك على الرأي العام الأميركي، بل تتعدها إلى أن داعش بات يهدد الولايات المتحدة وحلفاءها ومصالحها في المنطقة، خاصة مع سيطرته على مناطق واسعة في العراق وسوريا، وعلى بعض حقول النفط في سوريا، واقترابه من حقول كركوك والشمال العراقي.

يضاف إلى ذلك أن مقاتلي داعش لم يعودوا بضعة آلاف، ضمن مليشيا منفلته، بل تعدّ عددهم الثلاثين ألف مقاتل، ولهم قيادة عسكرية، مكونة من ضباط محترفين، يضعون إستراتيجية، تعتمد على المباغة وسرعة الانتشار والاقتحام، فضلاً عن

استخدام تنظيم الدولة لماكينة إعلامية، تنفذ ما تريده وفق حرافية عالية، وباستخدام متقن لوسائل الاتصال الحديثة.

ويكون الجسم الأساسي لتنظيم داعش من عناصر غير سورية، حيث تفيد تقارير موثوقة بأن عدد المقاتلين القادمين من الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي وسواها، يشكلون جيشاً من عدة آلاف، وهناك تخوفٌ كبير مما سي فعله هؤلاء حين يعودون إلى الولايات المتحدة وبلدانهم الأوروبية، بل هناك خشية حقيقة من قيامهم بأعمال انتقامية وشيكة، على غرار ما حدث من قبل، في نيويورك وواشنطن ولندن ومدريد وباريس وغيرها.

ولعل هذه الحيثيات والأسباب جعلت الرئيس الأميركي يعدل عن عدم اكتراهه ولامبالاته، ويتحرك سريعاً لتوجيه ضربات جوية إلى بعض مواقع داعش في العراق وسوريا، كونه بات يمتلك مبررات لانتقال القرار الأميركي من موقف المترجح غير المكترث بما يجري إلى موقف الفاعل الذي يريد تصفية هذا التنظيم، وعدم ترك ملاذ آمن له.

لكن ذلك لا يلغي أن التحول في الموقف جاء على خلفية الإقرار بأن وجود الخطر لا يختصر على العراق وسوريا، بل له امتدادات إقليمية ودولية، لذلك اضطر الرئيس الأميركي إلى وضع إستراتيجية، تسعى إلى تصفية مقاتل داعش وأشباهه "أينما وجدوا".

مخاوف السوريين:

غير أن الأولوية، بالنسبة للولايات المتحدة الأميركيه والتحالف الذي تسعى إلى تشكيله، ليست سوريا، بل العراق، وبالتالي يبدو مؤجلاً التحرك الأميركي الفاعل لحل الأزمة في سوريا إلى حين حدوث تطور ما.

وقد تكتفي الإدارة الأميركيه بتوجيه ضربات جوية مباغنة، وآنية، لموقع التنظيم في كل من الرقة ودير الزور والبوكمال وتل أبيض وسواها، مثلما فعلت في الجولة الأولى من عمليات القصف، التي قامت بها في الساعات الأولى من صباح 22/9/2014، وذلك من أجل لفت الرأي العام الغربي والتحالف إلى أنها جادة في محاربة التنظيم.

ومع ذلك هناك تخوف لدى السوريين من لا يكون الرئيس الأميركي جاداً في المضي بإستراتيجيته، وخاصة في جانب دعم وتسلیح المعارضة السورية، مثلما لم يكن جاداً في ضربة عسكرية ضد النظام السوري، حين اخترق الخط الأحمر الذي وضعه أوباما بنفسه، ثم محاه في صفة، جردت القاتل فقط من سلاحه، ولم تكترث لأرواح الضحايا.

وترتاد مخاوف السوريين من خطة أوباما ضد داعش في سوريا، كونها قد تمتد إلى عدة سنوات، وما يعني ذلك من زيادة الكلفة البشرية والمعاناة، ولا تتضمن رؤية سياسية لحل الأزمة، وتحدث عن تدريب خمسة آلاف مقاتل، تختارهم الجهات الأميركيه المختصة من بين عناصر "الجيش السوري الحر"، بهدف محاربة داعش ودحرها على الأرض، في حين أن مقاتل الجيش السوري الحر وجميع "المعتدلين"، يرون في النظام خطراً إلى جانب داعش، ويساونون بين النظام وبينه، بل يعتبرونه صنيعته، ولن يتوقفوا عن محاربته.

وتثير تعقيدات الوضع العسكري في سوريا التباساً في فهم التطورات الحاصلة فيها، لدى واضعي الإستراتيجية الأميركيه، الذين لا يأخذون معاناة السوريين في الحسبان، ولا يضعونها ضمن حساباتها، حيث إن السوريين -معارضة سياسية أو عسكرية- لم يشتركوا أو يُستشاروا في وضع الخطة الأميركيه، وكل ما عليهم هو تنفيذ ما تريده الإدارة الأميركيه منهم، أي أن يبقوا في موقع المنفعت وليس الفاعل.

والأمر لا يعود برمته إلى الطرف الأميركي فقط، إنما يعود أيضاً إلى مختلف أطراف المعارضة السورية، التي ارتضت لعب هذا الدور منذ بداية الأزمة، وراهنـت على الدور الخارجي من أجل دعمها ونصرة قضيتها.

ولعل المهم هو أن تعرف المعارضة السورية كيفية الاستفادة من محاربة داعش والدعم الذي قد تلقاه، من أجل تجييره في صالح تعجيل الخلاص من الوضع الكارثي. وهذا يتطلب فهم السياسات المتناقضة بين دول المنطقة، التي تترتب عليها اصطدامات إقليمية، لدول تتنافس في لعب الأدوار في المنطقة، مثل تركيا وإيران، ومدى انعكاس ذلك في الحرب على داعش.

وقد عانت أطراف المعارضة السياسية السورية ضعفاً مزمناً في قراءة الموقف الأميركي من الأزمة السورية، بالنظر إلى السمة الرغبوية، التي طبعت تلك القراءة، فضلاً عن صدورها عن موقع الضعيف، وليس القوي أو المؤثر في مسار تطور الأحداث. والأمر ذاته ينطبق على موقف المعارضة السياسية حيال قوى الثورة في الداخل، منذ البدايات، التي طاولها تراكم الأخطاء والانحرافات، ولم تتمكن القوى السياسية المعارضة وقتها من قيادة الثورة أو توفير مظلة سياسية لها، توجهها وتقودها.

جرعة الخذلان:

المخاللة في سياسات الإدارة الأميركيه حيال سوريا هو جرعة الخذلان التي تجرّعها سوريون كثُر، حيث عمدت إلى القول بمحتمية الحل السياسي، وأن لا حل عسكرياً للأزمة في سوريا، وهو ما يوافق رؤية سوريين كثُر، لكن من غير أن تبذل الإدارة الأميركيه أي جهد حيال العمل على تهيئة ظروف ومعطيات الحل السياسي المنشود.

بالمقابل، لا يكُلّ نظام الأسد من استجداء الولايات المتحدة ودول العالم، كي تقوم بدور ما في الحرب على الإرهاب، مع العلم أنه لم يتوقف يوماً عن ممارسة الإرهاب ضد شعبه، وأسهم في رعاية وتنمية كل أصناف الإرهاب. وهناك آراء تحذر من أن الحرب على داعش قد تصب في مصلحة النظام، وربما ستقوي موقفه عسكرياً. وكان واضحاً أن نظاماً استخدم السلاح الكيميائي ضد شعبه الأعزل، لا يمكن للولايات المتحدة أو سواها من دول الغرب أن تضع يدها بيده، لأسباب أخلاقية على الأقل.

وقد حاول النظام الإيهام بأن الإدارة الأميركيه نسّقت معه وأخبرته بموعده الهجمات الجوية الأولى على موقع داعش وأشباهه، لكن تبين أن الأمر لم يتعدّ الإخبار بالهجمات، كي لا يتعرض لأية طائرة لقوات دول التحالف، ولتنذيره بتحذير الرئيس الأميركي، باراك أوباما، من أنه "إذا فكر وأمر قواته بإطلاق النار على الطائرات الأميركيه، التي تدخل المجال الجوي السوري، فسنندم الدفاعات الجوية السورية عن آخرها، وسيكون هذا أسهل لقواتنا من ضرب موقع داعش".

والأكيد هو أن نظام الأسد يعي جيداً أنه لا يمكنه الإقدام على "أي عمل يندم عليه"، ويعي كذلك أن واشنطن لن تنسق معه حول الضربات الجوية ضد تنظيم داعش، لذلك لم يجد سوى الترحيب بالغارات، مستجدياً التنسيق معه من جديد، الأمر الذي أثار حفيظة الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، الذي طالب بالتنسيق مع نظام الأسد واحترام سيادته المفقودة، فيما لام الرئيس الإيراني حسن روحاني حلiffe السوري على قبوله قصف أراضيه.

ويبدو أن المهم بالنسبة لنظام الأسد هو اطمئنانه إلى أن قوات التحالف الذي تقاده الولايات المتحدة لن تضرب موقع قواته والمليشيات الإرهابية التي تقاتل دفاعاً عنه، مثل مليشيا حزب الله وأبو الفضل العباس وعصائب الحق وسواها.

ويراهن هذا النظام على أن تؤدي الغارات الأميركيه إلى إضعاف قوات المعارضة، على أمل أن يعيد احتلال المناطق التي قد تنسحب منها داعش وغيرها، فيما تراهن الإدارة الأميركيه على إضاج الظروف التي تمكّن المعارضة المعتدلة من محاربة داعش، وذلك من خلال إعادة تدريبها وتأهيلها، كي تستطيع القيام بالدور المطلوب.

وبين تعويل نظام الأسد ورهانات الإدارة الأمريكية يبقى السؤال عن معاناة السوريين ومصير سوريا، وعن طموحات التأريخ في الخلاص من نظام الأسد، والسير نحو تحقيق أهداف الثورة في الحرية والتحرر.

الجزيرة

المصادر: